عامر محمد نزار جلعوط
ماجستير في الاقتصاد الإسلامي

التكافل النبوي مع الصحابة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن سار على دربهم إلى يوم الدين وبعد: فهذه واحة إيمانية في الضمان الاجتماعي من هدي المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم الذي ننال باتباعه محبة الله تعالى والحياة الطيّبة

أحدا من عبادك في ذريته ثم قال يا أسماء ألا أبشرك ؟ قالت بلى، بأبي أنت وأمي قال: فإن الله عز وجل جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة، قالت: بأبي وأمي يا رسول الله فأَعْلِم الناس ذلكَ فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ بيدي، يمسح بيده رأسي حتى رقي على المنبر وأجلسني أمامه على الدرجة السفلى، والحزن يعرف عليه فتكلم فقال: إن المرء كثير بأخيه وابن عمه ألا إن جعفراً قد في الدارين ونقف فيها مع الصورتين التاليتين:

الصورة الأولى:

روى الواقدي في المغازي عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه يقول: (أنا أحفظ حين دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمي فتعى لها أبي، فأنظر إليه وهو يمسح على رأسي ورأس أخي، وعيناه تُهَرَاقَانِ الدموع حتى تَقْطُرَ لِحيَتُهُ. ثم قال اللهم إن جعفراً قد قدم إلى أحسن الثواب فاخلفه في ذريته بأحسن ما خلفت استشهد، وقد جعل الله له جناحين يطير بهما في الجنة. ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل بيته وأدخلني، وأمر بطعام فصنع لأهلي، وأرسل إلى أخي فتغدينا عنده والله غداء طيباً مباركاً. عمدت سلمى خادمته إلى شعير فطحنته ثم نسفته ثم أنضجته وَأَدَمَتْهُ بزيت وجعلت عليه فلفلاً. فتغديت أنا وأخي معه، فأقمنا ثلاثة أيام في بيته ندور معه كلما صار في أحد بيوت نسائه، ثم رجعنا إلى بيتنا، فأتى رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وأنا أساوم بشاة أخ لي، فقال: اللهم بارك في صفقته. قال عبد الله: فما بعت شيئاً ولا اشتريت شيئاً إلا بورك فيه.

إنه مشهد نبوي عظيم، بل صورة بديعة قد مُلئت بالرعاية الاجتماعية من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم تجاه عائلة أحد أصحابه الكرام الذين أقبلوا على كرم الله وعلى رزق الله في الجنة، وزادت من مكانة هذه الصورة أن أبطالها هم من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو التكافل الأسريّ النبوي من قائد الأمة الإسلامية محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد حوى هذا المشهد الذي تحول إلى قصة تجعل الفكر والخيال يحلق ليتصورها وكأنها تحدث أمامه فتزداد نبضات القلوب عند كل حركة فيها، حيث يدخل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بذاته كي ينعي ابن عمه لزوجته وأبنائه، حاملاً في نفس الوقت السكينة لأسرة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: (قد استشهد وقد جعل الله له جناحين يطير بهما في الجنة).

إنها بشرى بمكانة الشهداء العظيمة الجليلة، وبشرى بجناحين أعطاهما الله لجعفر الذي جاد بيديه، ثم بنفسه في سبيل الله بل إنه لمّا وجد بين القتلى كان في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية .

أما الأمر الثاني في هذا المشهد الجلل فهو مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس الصغار اليتامى، فهو يريد جلب السكن والحنان الذي قد غاب عنهم بفقد أبيهم وذلك تعليماً للأمة كلها، وكيف لا يفعل حبيب الله محمد صلى الله عليه وسلم وقد جاءت آيات قرآنية كثيرة توصي باليتامى، وهو الذي قد أوصى بهم في مناسبات عديدة قال الله تعالى ﴿ : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ البقرة:٢٢٠.

وليست رعاية الطفولة التي ذاقت اليتم بالأمر الذي يمر دون أجر بل إنه ضمان وكفالة متبادلة، فمن كفل يتيماً في الدنيا فإن محمداً صلى الله عليه وسلم يكفل له الجنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا) . وقال بإصبعيه السبابة والوسطى .

أما الأمر الثالث فهو حزنه عليه الصلاة والسلام فقد دمعت عيناه، ودخلت فاطمة رضي الله عنها وهي تبكي وتقول واعمّاه !فقال صلى الله عليه وسلم :على مثل جعفر فلتبك البواكي. فهذا يدل على إباحة البكاء الخفيف على الأحبّة دون النياحة وقد حدث ذلك مع رسول الله في مناسبات أخرى منها يوم أن مات ولده إبراهيم حينها قال : (تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى ربنا والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون) .

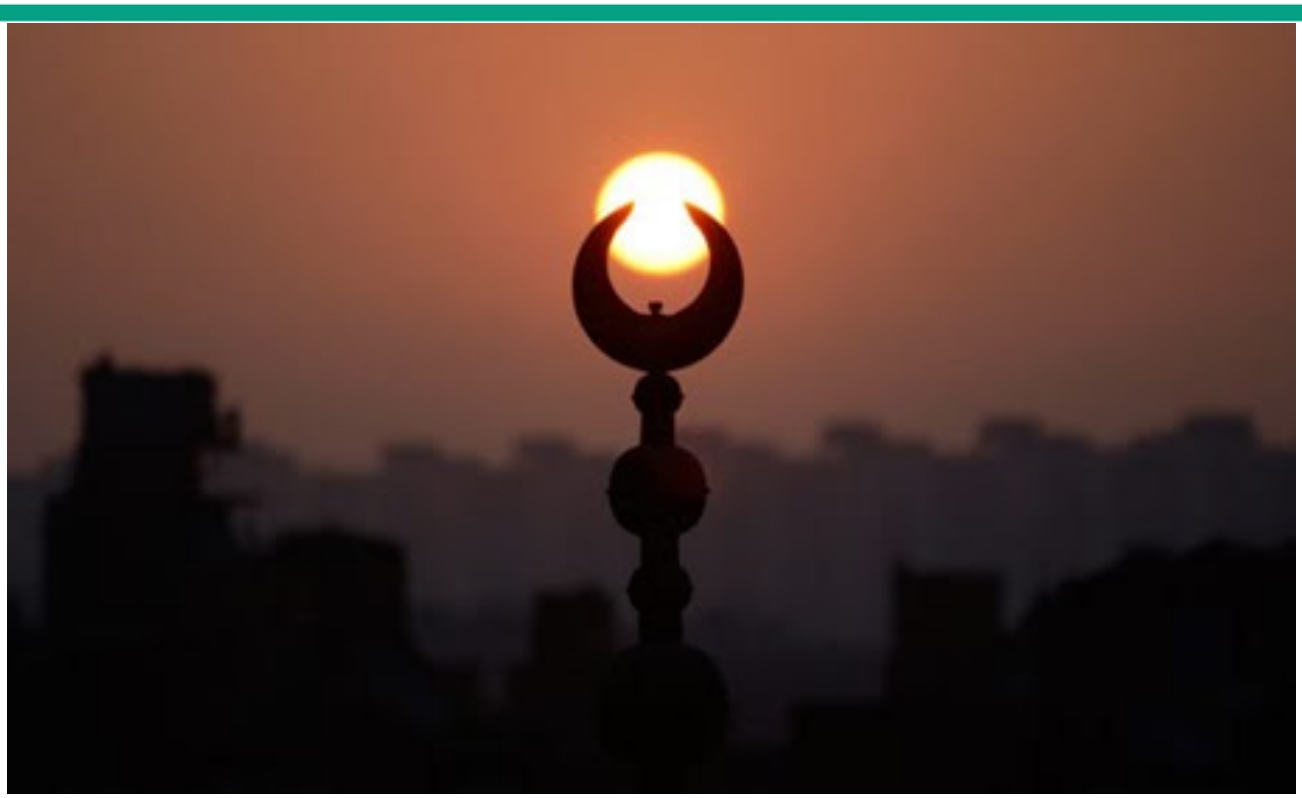

أما الأمر الرابع فهو صنع الطعام لأهل الميت فهو أمر مندوب حيث يستحب لجيران أهل الميت والأقرباء الأباعد تهيئة طعام لهم يشبعهم ليلتهم ويومهم، ويكره اتخاذ الضيافة من أهل الميت لأنه شرع في السرور لا في الشرور وهي بدعة مستقبحة ، وهذا شعور عملي عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) .

الصورة الثانية:

أخرج البخاري وغيره أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يقول :(آللّه الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني فمر ولم يفعل، ثم مر بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني فمر ولم يفعل، ثم مر بي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فتبسم حين رآني وعرف ما في نفسي وما في وجهي ثم قال: (يا أبا هِرٍّ). قلت: لبيك يا رسول الله قال: (الحق).

ومضى فَاتَّبَعْتُهُ فَدَخَلَ فَاسْتَأذَنَ فأذن لي فدخل فوجد لبناً في قدح فقال: (من أين هذا اللبن). قالوا أهداه لك فلان أو فلانة. قال: (أبا هِرٍّ). قلت: لبيك يا رسول الله. قال: (الْحَقْ إلى أهل الصُّفَّة فادعهم لي). قال: وأهل الصُّفَّة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد وَكَانَ إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها، وأشركهم فيها، فساءني ذلك فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة؟! كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتَقَوَّى بها، فإذا جاء أمرني فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بدٌ، فأتيتهم، فدعوتهم، فأقبلوا، فاستأذنوا، فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت قال: (يا أبا هر). قلت: لبيك يا رسول الله! قال (خذ فأعطهم). قال :فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروَى ثم يرد عَلَيَّ الْقَدَحَ، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يَرْوَى، ثم يرد علي القدح فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح حتى انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح، فوضعه على يده فنظر إليَّ فَتَبَسَّمَ فقال: (أبا هر). قلت لبيك يا رسول الله قال: (بقيت أنا وأنت). قلت صدقت يا رسول الله. قال: (اقعد فاشرب). فقعدت فشربت فقال: (اشْرَبْ). فشربت فما زال يقول: (اشرب). حتى قلت لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً قال: (فأرني). فأعطيته القدح فحمد الله وسمّى وشرب الفضلة).

صورة فريدة رائعة في المواساة النبوية المحمدية تُجاه أصحابه ننظر فيها من النواحي التالية:

أما الناحية الأولى لقد مر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجوار أبي هريرة فلم يعرف مراد أبي هريرة وحاجته، ثم يمر الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يعرف أيضاً ما هي حاجة أبي هريرة، فهما رضي الله عنهما بشر مثل بقية البشر لا يعلمان الغيب، ولو علما مراد أبي هريرة لم يكن أحدهما ليتأخر في إغاثة أبي هريرة أو حتى غيره، ولكن هذا الأخير كان ذو عفة وذو صبر عن المسألة في حديثه حتى لأقرب الناس لرسول الله صلى الله عليه

وسلم، وهذا ما يذكرنا بقول الله تعالى في القرآن الكريم حين وصف أبي هريرة ومن كان معه من أهل الصفة﴿ : لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ(البقرة:٢٧٣)

الناحية الثانية: فهي قول النبي محمد صلى الله عليه وسلم (يا أبا هر) ففيها تخفيف معنويّ عن أبي هريرة رضي الله عنه وذلك أنه كان يعاني من آلام الجوع، وهريرة تصغير هرة فخاطبه باسمها مذكراً فهو نقصان في اللفظ وزيادة في المعنى.

الناحية الثالثة: حيث أن قدح اللبن أشبع كل من شرب منه، وهذا من معجزاته صلى الله عليه وسلم.

أما الناحية الربعة: فهو أمر الشبع فكثير من المسلمين في هذه الأيام قد يتجافى عنهم الشبع والذي هو من أمور المباحات لأن الله تعالى قال :﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ الأعراف:٣١

وجاء في الطب النبوي: (فامتلاءُ البطن من الطعام مضرٌ للقلب والبدن. هذا إذا كان دائماً أو أكثرياً. وأما إذا كان في الأحيان، فلا بأس به، فقد شرب أبو هريرة بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم من اللَّبن، حتى قال: والَّذي بعثكَ بالحقِّ لا أجدُ له مَسْلَكاً، وأكل الصحابةُ بحضرته مراراً حتى شَبِعوا) .

وعلى كل حال فقد حث الإسلام على إطعام الجائعين خاصة عند معرفتهم مع المقدرة على ذلك وقد فعل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هذا مع أصحاب الصفة والذين كانوا يسكنون إلى جوار مسجده، وقد قال صلى الله عليه وسلم (ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به) . وقال أيضاً: (أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السلام، وأطعموا الطعام وَصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام) .

فأين تعاضد أبناء هذه الأمة تُجاه الجائعين من أبنائها، فهذا قدوتهم ومثلهم الأعلى محمد رسول الله فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على دربهم إلى يوم الدين.

الهوامش:

١. أسماء بنت عميس الخثعمية، أسلمت بمكة وبايعت، وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب، فلما استشهد بمؤتة تزوجها أبو بكر الصديق رضى الله عنهما فولدت له محمداً. ثم توفي عنها فتزوجها علي بن أبي طالب فولدت له يحيى وعوناً وفي رواية: ومحمداً، توفيت سنة ثمان وثلاثين للهجرة. عن ا لطبقات الكبرى محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري جـ٨ ص٢٨٠.
٢. ص٧٦٧ من كتاب المغازي والواقدي محمد بن عمر بن واقد السهمي الاسلمي بالولاء، المدني، وهو من أقدم المؤرخين في الاسلام، ومن حفاظ الحديث. الخصائص الكبرى جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي جـ١ ص٤٣٧ دار الكتب العلمية، بيروت – ١٤٠٥هـ.
٣. تجريان.
٤. صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة مؤتة من أرض الشام جـ٤ ص١٥٥٤.
٥. صحيح البخاري كتاب الأدب باب فضل من يعول يتيماً جـ٥ ص٢٢٣٧.
٦. صحيح مسلم كتاب الفضائل، باب رحمته –صلى الله عليه وسلم– الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك جـ٧ ص٥٨.
٧. عون المعبود جـ٨ ص٢٨٢.
٨. أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المسلمين جـ٤ ص١٩٩٩، أحمد في المسند جـ٤ ص٢٧٠.
٩. كتاب الرقاق باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتخليهم من الدنيا جـ٥ ص٢٣٧٠.
١٠. أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي أحفظ من روى الحديث في دهره، مات بالمدينة سنة تسع وخمسين وهو ابن ثمان وسبعين سنة ودفن بالبقيع وكان عَرِيف أَهْلِ الصُّفَّة وأشهر من سكنها.
١١. أي ألصق بطني بالأرض.
١٢. قال الإمام النووي: أصحاب الصفة هم الفقراء الغرباء الذين كانوا يأوون إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت لهم في آخره صفة، وهو مكان منقطع من المسجد مظلل عليه يبيتون فيه. شرح صحيح مسلم جـ٦ ص٣٨٠.
١٣. فيض القدير شرح الجامع الصغير جـ١٠ ص٥٨١ عبد الرؤوف المناوي.
١٤. الطب النبوي ص٤٤محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية دار الكتاب العربي، بيروت، ط١ /١٤١٠هـ.
١٥. الطبراني في المعجم الكبير بإسناده حسن.
١٦. أخرجه الترمذي بإسناد صحيح.